﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[١]

محسن الأسدي

الحجّ دعوةٌ ربّانيّة عظيمة، ونداءٌ سماويّ خالد، ومؤتمرٌ إسلاميّ كبير، وتظاهرةٌ إيمانية رائعة، تضمّ بين صفوفها أجناساً متعدّدة، ومذاهب وطبقات وقوميّات شتّى، جميعاً على موعد واحد، ووادٍ مقدّس، وحرم آمن، وبيت مبارك تهوي إليه أفئدة من الناس.

إنّها جموع مؤمنة، هدفها واحد، مناسكها واحدة، هتافها واحد، تلبيتها واحدة، عبودية خالصة لله وحده لا شريك له، تسليم وولاء لله وحده لا شائبة فيه..

حقّاً هي حركة جماهيرية لا مثيل لها، تترك بصماتها وآثارها في النفوس، فتزيد المؤمنين إيماناً وتسليماً، فيما تزيد الكافرين عجباً ورهبةً وخذلاناً.

عجباً!! إنّها عظمة الحجّ

يفيض على الأقطار يُمناً ورحمةً ويزأر في أذن العتاة ويصخب

---

(١) سورة الحجّ: ٢٨.

صفٌّ مرصوص، وبنيان متماسك يشدّ بعضه بعضاً في فريضة هي محور عباديّ تلتقي عنده منافع دنيويّة ومنافع أخروية، وتتداخل فيما بينها في أكثر من موقع ومفصل في هذه الفريضة المباركة.

إنّ الحجّ محراب عبادة ما أعظمه!

وموسم تجارة ما أنفعه!

ومؤتمر إخاء وتوادٍّ وتعارف ومسؤولية ما أروعه!

إنّه آيةٌ مباركة بل آيات مباركة من سورةٍ مباركة، جاءت لتذكر حِكَماً خمساً للأذان الذي تحمله أو لإتيان الناس هذا الموسم وحضورهم فيه، فكانت المنافع على تفاوت ألوانها وتعدد أشكالها واختلاف أنواعها أُولى هذه الحِكَم. أو هي كما سمّاها بعضهم علّة إتيان الناس الحجّ أو علّة التأذين به[١].

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[٢].

لقد اكتفى الرازي في تفسيره بأن جعل قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ حكمة الأمر بالحجّ، حيث قال:

وأمّا قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأُولى: أنّه تعالى لمّا أمر بالحجّ في قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...﴾ ذكر حكمة ذلك الأمر في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[٣].

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتقرير في تفسير الآية.

(٢) سورة الحجّ: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٣: ٢٨ في تفسير الآية.

فيما ذكر صاحب الأساس في التفسير أنّ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أولى الحِكم الخمس التي ذكرت متعاقبة في الآية الكريمة[١].

إذن يمكن ترتيب هذه الحكم كالتالي حيث إنّها جميعاً تتضمّن منافع عظيمة وفوائد جليلة سواءً المقطع الأوّل منها: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أو المقاطع التالية، وترتيبها:

الأولى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

الثانية: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

الثالثة: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾.

الرابعة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾.

الخامسة: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

فشهود المنافع تتقدّم تكاليف الحجّ أو حكمه، وكأنّ السماء أرادت بهذا أن تتفضّل بعطائها أولاً (حسنة الدُّنيا وحسنة الآخرة) لضيوف الرحمٰن الذين لبّوا نداءه، تكرّماً منه تعالى ورحمة قبل تكليفهم بأيّ شيء آخر من الأمور التي تعاقبت في الآية الأولىٰ وفي الآية الثانية.

فلنقف عند هذا المقطع: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ إعراباً ولغةً وفي الروايات وأقوال المفسِّرين وبعد هذا عبر بيانٍ عامّ أخير.

الإعراب واللغة

اللّام: لام التعليل. يشهدوا فعل مضارع من الأفعال الخمسة منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون.

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، في تفسير الآية.

منافع: مفعول به منصوب بالفتحة وهو ممنوع من الصرف.

لهم: جار ومجرور.

يقول العلّامة الطباطبائي: اللّام: للتعليل أو الغاية، والجار والمجرور متعلّق بقوله: ﴿يأتوك﴾ والمعنى يأتوك لشهادة منافع لهم أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم...[١].

فيما جوّز أبو البقاء تعلّقها بأذّن. وأن تعلّق بـ(يأتوك)[٢].

فيما قال ابن العربي في أحكامه: هذه لام المقصود والفائدة التي ينساق الحديث لها، وتنسّق عليه، وأجلّها قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٣].

وقد تتّصل هذه اللّام بالفعل كما في الآية محلّ البحث، وتتّصل بالحرف كما في قوله تعالى: ﴿لئلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[٤].

يشهدوا: أي يحضروا؛ لأنّ الشهود بمعنى الحضور.

منافع: النفع ضدّ الضرّ، النفع هو الخير وهوما يتوصّل به الإنسان إلى مطلوبه.

والمنفعة: الفائدة، يقال: هو حاضر النفيعة أي المنفعة والفائدة.

ومنافع: جمع منفعة، كلّ شيء يُنتفع به.

يقول الراغب في مفرداته: النفع يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصّل به إلى الخير فهو خير، فالنفع خير وضدّه الضرّ، قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِاَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾[٥] وقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾[٦].[٧].

(١) الميزان في تفسير القرآن للعلّامة السيد الطباطبائي ١٤: ٤٠٥ في تفسير الآية.

(٢) إملاء ما منَّ به الرحمٰن ٢: ١٤٣.

(٣) سورة الطلاق: ١٢.

(٤) سورة الحديد: ٢٩.

(٥) سورة الرعد: ١٦.

(٦) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٧) المفردات للراغب الاصفهاني: ٥٠٢.

تنكير منافع:

ومنافع جاءت نكرةً، وللمفسّرين آراء في هذا، حيث يقول الفخر الرازي في تفسيره: إنّما نكّر المنافع؛ لأنّه أراد منافع مختصّة بهذه العبادة؛ دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادات[١].

وأمّا البروسوي فقد قال مثل قول الرازي، فتنكيرها؛ لأنّ المراد به نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة لا يوجد في غيرها من العبادات[٢].

وما أجمل ما ذكره النسفي في تفسيره للآية حيث قال: نكرها لأنّه أراد منافع مختصّة بهذه العبادة دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادة، وهذا لأنّ العبادة شرعت للابتلاء بالنفس، كالصلاة والصوم، أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحجّ عليهما، مع ما فيه من تحمّل الأثقال، وركوب الأهوال، وخلع الأسباب، وقطيعة الأصحاب، وهجر البلاد والأوطان، وفرقة الأولاد والخلان، والتنبيه علىٰ ما يستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلىٰ دار البقاء، فالحاجّ إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلّا علىٰ عتاده، ولا يأكل إلّا من زاده، فكذا المرء إذا خرج من شاطئ الحياة، وركب بحر الوفاة، لا ينفع وحدته إلّا ما سعىٰ في معاشه لمعاده، ولا يؤنس وحشته إلّا ما كان يأنس به من أوراده، وغسل من يُحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط، وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه علىٰ سريره لغسله وتجهيزه مطيباً بالحنوط، ملفّفاً في كفن غير مخيط، ثمّ المحرم يكون أشعث حيران، فكذا يوم الحشر، يخرج من القبر لهفان، ووقوف الحجيج بعرفات آملين رَغَباً ورهباً، سائلين خوفاً وطمعاً، وهم من بين مقبول ومخذول، كموقف العرصات، لا تكلّم نفس إلّا بإذنه، فمنهم شقيّ وسعيد، والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل

(١) التفسير الكبير، للرازي ٢٣: ٢٩ من تفسير الآية.
(٢) روح البيان للبروسوي ٦: ٢٦.

القضاء، ومنىٰ هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين، وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف، والبيت الحرام الذي مَن دخله كان آمناً، من الإيذاء والقتال، أنموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال، غير أنّ الجنّة حفّت بمكاره النفس العادية، كما أنّ الكعبة حفّت بمتالف البادية، فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي شوقاً إلى اللقاء يوم التنادي)[١]

فيما قال الآلوسي: «منافع» أي عظيمة الخطر، كثيرة العدد، فتنكيرها وإن لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير، ويجوز أن يكون للتنويع أي نوع من المنافع الدينية والدنيوية، وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين، وقد ذكر رواية ابن عبّاس التي ستأتي وقد أخرجها ابن أبي حاتم[٢].

فيما يقول صاحب تفسير الفرقان: وتنكير «منافع» هو تنكير تعظيم لما يجهل من منافع، فلم يقل «منافعهم» أو «المنافع» لكي لا يُخيّل إليهم أنّها المنافع المعروفة لديهم، الحاصلة في غير ذلك المؤتمر العالمي، وإنّما «منافع لهم» مجهولة لمن لم يأتوا ذلك المشهد المسرح، وهي لهم جميعاً، دون المنافع الفردية الحاصلة في كلّ مطرح![٣].

فما أعظم هذه المنافع التي اتّسمت بالخصوصية، وأنّها غير متوفّرة في كلّ العبادات الأُخرى على عظيم منزلتها!! حتّى راح بعضهم يفاضل بين العبادات قبل أن يحجّ، فلمّا حجّ فضّل الحجّ على العبادات كلّها لما شاهد من تلك الخصائص.

المراد من المنافع:

أوّلاً: في روايات أهل البيت عليهم السلام:

لقد ذكرت الروايات تفاسير لهذه المنافع، فذهب أكثر هذه الروايات إلى أنّ

(١) أُنظر تفسير النسفي، سورة الحجّ الآية ٢٨.

(٢) روح المعاني للآلوسي ٩: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) الفرقان في تفسير القرآن، محمد الصادقي ١٧: ٦٥.

المراد بها هو عموم المنافع؛ المنافع الأخروية والمنافع الدنيوية بكلّ أبعادها ونواحيها، سواء أكانت منافع فردية للشخص نفسه أو لعموم المجتمع. فهي إذن منافع عامّة ومحال أن تكون منافع دنيوية فقط؛ لأنّه لو كان الأمر كذلك لكانت دعوة الحجّ منصبّة على تحقيق منافع الدُّنيا، وأنّها المقصودة بأذان الحجّ، وهذا قطعاً غير صحيح، فالحجّ عبادة خالصة لله تعالى، ينتفع فيها الحاجّ أجراً وثواباً وغفران ذنوب، فيما تكون منافع الدُّنيا تابعة لذلك وليست هي المقصود الأوّل فيها.

إلّا أنّ القليل من الروايات ذهب إلى أنّ المقصود بالمنافع هي المنافع الأخروية.

وهذا لا يضرّ فإثبات إحدى المنفعتين كما يقول السيّد الطباطبائي لا ينفي العموم.

ففي الكافي بإسناده عن الربيع بن خثيم أنّه قال: شهدتُ أبا عبدالله عليه السلام وهو يُطاف به حول الكعبة في محمل وهو شديد المرض، فكان كلّما بلغ الركن اليمانيّ أمرهم فوضعوه بالأرض، فأخرج يده من كوّة المحمل حتّى يجرّها على الأرض، ثمّ يقول: ارفعوني.

فلمّا فعل ذلك مراراً في كلّ شوط قلت له: جعلت فداك يابن رسول الله، إنّ هذا يشقّ عليك، فقال: إنّي سمعت الله عزّوجلّ يقول: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾.

فقلت: منافع الدُّنيا أو منافع الآخرة؟

فقال: الكلّ[1].

فهي منافع غير مختصّة بالدُّنيا دون الآخرة، أو بالآخرة دون الدُّنيا إنّما هي لكلا الدارين.

وهذا أحد أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو هشام بن الحكم يسأله

(١) وسائل الشيعة للحرّ العاملي، كتاب الحجّ: ٩.

عن الحجّ: ما العلّة التي من أجلها كلّف الله العباد بالحجّ والطواف بالبيت؟

قال الإمام عليه السلام: «إنّ الله خلق الخلق... وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر الدُّنيا، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب؛ ليتعارفوا ولينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمّال، ولتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسىٰ.

ولو كان كلّ قوم إنّما يتّكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا على ذلك، فذلك علّة الحجّ»[1].

وهناك تعليل آخر للإمام الرضا عليه السلام وهو ما يرويه الفضل بن شاذان حول منافع الحجّ وآثاره الاجتماعية التي يجنيها الفرد والمجتمع فهو يقول:

«إنّما أُمروا بالحجّ لعلّة الوفادة إلى الله عزّوجلّ، وطلب الزيادة، والخروج من كلّ ما اقترف العبد، تائباً ممّا مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذّات شاخصاً في الحرّ والبرد ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلّل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع مَن في شرق الأرض وغربها، ومَن في البرّ والبحر، ممّن يحجّ وممّن لم يحجّ، من بين تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين ومكارٍ وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف من المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقّه ونقل أخبار الأئمّة إلى كلّ صقع وناحية كما قال الله عزّوجلّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2]. ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾[3].

(١) المصدر نفسه.

(٢) سورة التوبة: ١٢٢.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب الحجّ: ٧.

حقّاً ليشهدوا منافع لهم، ليحضروا منافع لهم، كلّ جيل بحسب ما تقتضيه ظروفه وتطوّرها وحاجاته وتجارته وهو بعض ممّا أراده سبحانه وتعالى بالحجّ منذ أن فرضه على المسلمين، ومنذ أن أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن به في الناس.

إذن فالمنافع على ضوء هذه الروايات عامّة تشمل منافع الدُّنيا ومنافع الآخرة، إلّا أنّ هناك رواية عن الإمام أبي جعفر الباقر يذكر فيها أنّ المنافع هي: منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة، وهو المروي عن سعيد بن المسيب وعطية العوفي أيضاً[1]. وهذه لا تضرّ العموم أو لا تنفيه كما ذكر سابقاً.

ثانياً: عند المفسِّرين

اختلف المفسِّرون في المراد من المنافع، فعن الشيخ الطبرسي في تفسيره: فالذي يُروى عن الإمام الباقر عليه السلام هو منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة، وهو المروي عن سعيد بن المسيب وعطية العوفي. وعندئذ يكون المعنى: ليحضروا ما ندبهم الله إليه ممّا فيه النفع لهم في الآخرة[2].

إذن فالمنافع هنا قد خُصّت بالمنافع الأخروية فقط.

فيما ذهب ابن عبّاس في قولٍ له وسعيد بن جبير إلى أنّها التجارات، وفي قول ثانٍ لابن عبّاس: أسواق كانت، ما ذكر المنافع إلّا للدُّنيا.

وعن مجاهد: التجارة وما يرضي الله من أمر الدُّنيا والآخرة[3].

استفاد بعض الفقهاء ـ على ضوء هذه الرواية ـ جواز الاتّجار في الحجّ، وعلى ضوء الآية الأُخرى ٩٨ من سورة البقرة: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ**﴾.

فقد ذهب جمع إلى أنّ الفضل الوارد في هذه الآية هو التجارة، فيما نفى القرطبي

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٧: ١٢٩ في تفسير الآية.
(٢) أُنظر مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٧: ١٢٩.
(٣) المصدر نفسه، وغيره من كتب التفسير للآية.

الخلاف في أنّ المراد بالفضل في الآية التجارة، وذكر ثلاثة أقوال في المراد من المنافع: المغفرة، التجارة، والعموم أي ليحضروا منافع لهم أي ما يُرضي الله تعالى من أمر الدُّنيا والآخرة[١].

أمّا مجاهد وعطاء فقد جمع كلاهما بين الاثنين تجارة الدُّنيا وأجر الآخرة حيث قالا: التجارة في الدُّنيا والأجر والثواب في الآخرة[٢].

وهناك قول ثالث لابن عبّاس في الآية أخرجه ابن أبي حاتم حيث قال: منافع في الدُّنيا ومنافع في الآخرة، فأمّا منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأمّا منافع الدُّنيا فما يصيبون من لحوم البُدْن (الإبل والبقر ونحوهما) في ذلك اليوم، والذبائح والتجارات.

إذن فالمراد من منافع (التي هي على قولٍ: المغفرة، وعلى قولٍ آخر: التجارة) هو عموم المنافع سواء أكانت منافع دنيوية أو أُخروية، فالحجّ دعوة إلى أن يشهد الحجيج منافع تنتظرهم في موسم الحجّ بلا تحديد لطبيعة هذه المنافع ولا تحجيم لها ولا تضييق، فهي واسعة شاملة متعدّدة جعلها الله تعالى وهو الكريم المتفضّل على عباده كذلك، فلماذا نضيّق الواسع ونحجره؟! وهو ما سيأتي في كلمات الإمامين الصادق والرضا عليهما السلام.

إلّا أنّ هناك من قد يذهب إلى أنّها فقط المنافع الدنيوية دون الأخروية باعتبار أنّ الثانية ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ...﴾ فهذا الجانب العبادي.

والجواب أنّه لا بأس بأن تكون المنافع عامّة للدنيوية والأخروية، ثمّ جاء المقطع الثاني ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ...﴾ خاصّاً بالعبادة، فيكون من باب ذكر الخاصّ

(١) أحكام القرآن للقرطبي ١٢: ٤١.
(٢) مجمع البيان للطبرسي: ١٢٩.

بعد العام.

وانطلاقاً من عموم المنافع، فقد ذكر المفسِّرون تفاصيل متعدّدة لها، نذكر أقوال بعضهم:

يقول الفخر الرازي: واختلفوا فيها، فبعضهم حملها على منافع الدُّنيا، وهي أن يتّجروا في أيّام الحجّ، وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة عن محمّد الباقر عليه السلام، وبعضهم حملها على الأمرين جميعاً، وهو الأولى[1].

في حين يقول ابن العربي في أحكامه: «منافع» فيها أربعة أقوال:

الأوّل: المناسك، الثاني: المغفرة، الثالث: التجارة، الرابع: من الأموال، وهو الصحيح، وذلك كلّه من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وآخرة.

ثمّ يقول: والدليل عليه (على كلّ ذلك أنّه المنافع المقصودة): عموم قوله: ﴿منافع﴾ فكلّ ذلك يشتمل عليه هذا القول، وهذا يعضده بقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[2]، وذلك هو التجارة بإجماع من العلماء[3].

أمّا السيِّد الطباطبائي في ميزانه فيقول: وقد أُطلقت المنافع ولم تتقيّد بالدنيوية أو الأخروية.

ثمّ راح يفصِّل هذه المنافع بشقّيها فيقول:

والمنافع نوعان:

منافع دنيوية: وهي التي تتقدّم بها حياة الإنسان الاجتماعية، ويصفو بها العيش وترفع بها الحوائج المتنوّعة، وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير، وأقسام الرسوم والآداب والسنن والعادات،

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٣: ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ٩٨.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

ومختلف التعاونات والتعاضدات الاجتماعية وغيرها.

فإذا اجتمعت أقوام وأُمم من مختلف مناطق الأرض وأصقاعها على ما لهم من اختلاف الأنساب والألوان والسنن والآداب، ثمّ تعارفوا بينهم وكلمتهم واحدة هي كلمة الحقّ وإلٰههم واحد وهو الله عزّ اسمه، ووجهتهم واحدة هي الكعبة البيت الحرام، حملهم اتحاد الأرواح على تقارب الأشباح، ووحدة القول على تشابه الفعل، فأخذ هذا من ذاك ما يرتضيه وأعطاه ما يرضيه، واستعان قوم بآخرين في حلّ مشكلتهم وأعانوهم بما في مقدرتهم فيبدّل كلّ مجتمع جزئي مجتمعاً أرقى، ثمّ امتزجت المجتمعات فكوّنت مجتمعاً وسيعاً له من القوّة والعدّة ما لا تقوم له الجبال الرواسي، ولا تقوى عليه أيّ قوّة جبّارة طاحنة، ولا وسيلة إلى حلّ مشكلات الحياة كالتعاضد، ولا سبيل إلى التعاضد كالتفاهم، ولا تفاهم كتفاهم الدين.

هذه هي المنافع الدنيوية، أمّا المنافع الأخروية فقد ذكرها قائلاً:

ومنافع أخروية: وهي وجوه التقرّب إلى الله تعالى بما يمثّل عبودية الإنسان من قول وفعل، وعمل الحجّ بما له من المناسك يتضمّن أنواع العبادات من التوجّه إلى الله وترك لذائذ الحياة وشواغل العيش والسعي إليه بتحمّل المشاق والطواف حول بيته والصلاة والتضحية والإنفاق والصيام وغير ذلك.

... إنّ عمل الحجّ بما له من الأركان والأجزاء، يمثّل دورة كاملة ممّا جرى على إبراهيم عليه السلام في مسيره في مراحل التوحيد ونفي الشريك وإخلاص العبودية لله سبحانه.

فإتيان الناس إبراهيم عليه السلام أي حضورهم عند البيت لزيارته يستعقب شهودهم هذه المنافع أخرويّها ودنيويّها، وإذا شهدوها تعلّقوا بها، فالإنسان مجبول على حبّ الدُّنيا[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٤: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

أمّا سيِّد قطب فيذهب إلى العموم أيضاً حيث يقول:

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير؛ فالحجّ موسم ومؤتمر. الحجّ موسم تجارة وموسم عبادة، والحجّ مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون، وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدُّنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة... أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحجّ سوقاً رائجة، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كلّ شيء.. من أطراف الأرض، ويقدم للحجيج من كلّ فجّ ومن كلّ قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرّق في أرجاء الأرض في شتّى المواسم. يتجمّع كلّه في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج، وسوق عالمية تقام في كلّ عام.

ويواصل كلامه فيقول:

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام، وهي ترفّ حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترفّ كالأطياف من قريب ومن بعيد..

ثمّ راح سيّد قطب يذكر تلك الأطياف في تفصيلٍ جميل رائع يذكره في تفسيره، نكتفي نحن بذكر عناوينها:

طيف إبراهيم الخليل وهو يودّع البيت ولذة كبده إسماعيل وأُمّه..

طيف هاجر... وهي تهرول بين الصفا والمروة..

طيف إبراهيم إذ يقول لابنه إسماعيل ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[1]..

طيفهما وهما يرفعان القواعد من البيت..

طيف عبدالمطّلب وهو ينذر دم ابنه العاشر (عبدالله) إن رزقه الله عشرة أبناء..

---

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

ثمّ تتواكب الأطياف والذكريات، من محمّد رسول الله ﷺ وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى، حول البيت... وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل.. وهو يصلّي.. وهو يطوف.. وهو يخطب.. وهو يعتكف...[١].

أمّا صاحب تفسير التحرير والتنوير فقد ذكر في تفسير هذه الآية وقوله تعالىٰ: ﴿ليشهدوا﴾ يتعلّق بقوله: ﴿يأتوك﴾ فهو علّة لإتيانهم الذي هو سبب على التأذين بالحجّ، فآل إلى كونه علّة في التأذين بالحجّ.

ومعنى ﴿ليشهدوا﴾ ليحضروا منافع لهم، أي ليحضروا فيحصّلوا منافع لهم، إذ يحصّل كلّ واحد ما فيه نفعه.

وأهمّ المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب، فكُني بشهود المنافع عن نيلها. ولا يعرف ما وعدهم الله على ذلك بالتعيين، وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد؛ ليلتقي بعضهم بعض ما به كمال إيمانه.

أمّا بخصوص تنكير «منافع» للتعظيم المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية؛ لأنّ في مجمع الحج فوائد جمة للناس؛ لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكلّ حاجّ، ولمجتمعهم لأنّ في الاجتماع صلاحاً في الدُّنيا بالتعارف والتعامل.

ثمّ قال: وخصّ من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيّامٍ معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وذلك هو النحر والذبح للهدايا...[٢].

وأمّا مغنية فيقول:

الحجّ هو العبادة الوحيدة التي تجمع بين المنافع الدينية والدنيوية، أمّا الدينية فطاعة الله بأداء الفريضة، والتوبة من الخطايا والذنوب واستشعار الهيبة والجلال.

(١) في ظلال القرآن لسيِّد قطب ٤: ٢٤١٨ ـ ٢٤٢٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ١٧: ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

ثمّ يذكر عن ابن عربي في الفتوحات المكّية أنّه قال: كنت في ذات يوم أطوف بالكعبة، فرأيتها فيما خُيِّل إلي أنّها ارتفعت عن الأرض، وتوعدتني بكلام، والله سمعتُه، وهي تقول: «تقدّم حتّى ترى ما أصنع بك، لِمَ تضع من قدري، وترفع من قدر بني آدم؟!».

ثمّ يردف مغنية قائلاً: فنقول عن يقين: ما من أحد يسعى أو يطوف في بيت الله بإخلاص إلّا ويستشعر شيئاً من هذا النوع[1].

بيان أخير

على ضوء كلّ ما تقدّم من تفسيرٍ للآية الكريمة عبر الروايات وأقوال جمع من المفسِّرين، يمكننا أن نقول:

إنّ الإنسان بما أنّه لم يكن ذا بُعد واحد بل تجتمع فيه أبعاد متعدّدة، وهي ليست منفصلة عن بعضها بل هي متكاملة، يلتقي فيها البُعد الفردي لشخصيته بالبُعد الاجتماعي، البُعد الروحي بالبُعد المادّي، فلا يستطيع كلّ بُعد من هذه الأبعاد أن يحقّق وجوده ويثبت كيانه بمفرده بعيداً عن البُعد الآخر المكمّل له، فهذه الأبعاد بكلّ مفاصلها أبعاد ممتزجة مختلطة؛ متوقّف بعضها على بعض، ويشدّ كلّ بُعد أزر البُعد الآخر، ويتفاعل معه سلباً أو إيجاباً، فيغدو الإنسان سالماً بسلامتها، ومعيباً إذا عيب ولو بعدٌ منها.

لهذا راحت نظرة السماء شاملةً لهذه الأبعاد التي تتضمّنها النفس الإنسانية، فنراها في أحكامها ومفاهيمها ومبادئها سواء أكانت عبادية أم حياتية ترعى هذه الأبعاد وتهتمّ بها وتجعلها مواضيع لأحكامها... وغدت تشريعاتها تصاغ لتنظيم حياة هذا الكائن الذي كرّمه الله وفضّله على جميع مخلوقاته دون أن تهمل بُعداً من

(١) التفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية ٥: ٣٢٣.

أبعاد شخصيته. أَوَيصحّ أن تهمل السماء بُعداً من أبعاد كيانه وشخصيته وقد أناطت به مسؤولية كبرى ألا وهي الخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]؟ أوليس النظر إلى بعض أبعاده دون بعضها الآخر خلاف التكريم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾[٢] بل وخلاف العدل؟ حاشَ لله أن يظلم عباده ﴿وما ربّك بظلّامٍ للعبيد﴾[٣].

إذن فالإسلام في جميع تشريعاته.. لا يفرط ببُعد من تلك الأبعاد ولا يهمل بُعداً على حساب البُعد الآخر، فتشريعاته ومفاهيمه صيغت صياغة خاصّة لتلبّي كلّ هذه الأبعاد الروحية والمادّية في النفس الإنسانية، بل راحت تحثّ على رعايتها وعلى التوازن بينها، محذّرةً من رعاية بعضها دون الآخر أو إهمال شيء منها «ليس منّا من ترك دنياه لآخرته، ومن ترك آخرته لدنياه» وهذا رعاية لمتطلّبات وحاجات الجسد وتلبية لما تشتاق إليه الروح وتهفو إليه النفس «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً» إنّه إخلاص لكلا الحياتين الدنيوية والأخروية ودقّة في التفاني لبنائهما وتعميرهما بجدٍّ وصبر ومثابرة.

وعلى هذا الأساس بنيت أحكام الإسلام وتشريعاته وهي تحمل هذا الهمّ الكبير وهذا الهدف العظيم (بناء الشخصية المؤمنة بناءً محكماً) وهي نواة لبناء المجتمع المؤمن بناءً محكماً أيضاً، ولا يتمّ هذا البناء ولا يتكامل، بل ولا يسلم من أن ينهدّ إلّا بمراعاة جميع خصوصيات هذا الكائن المادّية والمعنويّة.

وفريضة الحجّ واحدة من تلك التشريعات العبادية قد جاءت بكلّ مناسكها لتحمل ذلك الهدف العظيم، وتحقّق لهذه الشخصية المؤمنة ولكلّ جانب من جوانبها

(١) سورة البقرة: ٣٠.
(٢) سورة الإسراء: ٧٠.
(٣) سورة فصلت: ٤٦.

حركة روحية خاصّة قد لا تتوفّر في غيرها من العبادات الأُخرى، إلّا أنّها تمتاز عليها بمشقّة أكبر وثمار أعظم.. وبالتالي تمتدّ هذه الحركة وتتّسع لبناء مجتمع إيمانيّ كبير ينصهر في بوتقته الأفراد المؤمنون جميعاً.

المنافع المعنوية:

أوّلاً: من منافع الحجّ الكبرى أنّه دورة إيمانية جاء لتعميق الارتباط بالسماء بذكر الله سبحانه المتواصل الدائم في هذه الأيّام المعدودة ﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**...﴾[1]، فيترك هذا الارتباط بصماته على حياة الحاج اليومية، ويستشعر عظمة الله تعالى في كلّ أنفاسه وخطواته، ويرقبه في كلّ أعماله وسكناته.

كما يربّي الحاج نفسه في هذه الأيّام ويصوغها على الطاعة والانقياد والصبر عليها، تأمره الشريعة فيأتمر، وتنهاه فينتهي، لا يشغله شاغل عن ذلك، ولا يصرفه أحد عمّا فيه رضا الله.

تقول الرواية وهي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أردت الحجّ فجرِّد قلبك لله عزّوجلّ ـ من قبل عزمك ـ من كلّ شاغل وحجاب حاجب، وفوّض أُمورك كلّها إلى خالقك، وتوكّل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلِّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدُّنيا والراحة».

إذن فالحجّ مدرسة عظيمة ودورة تربوية صالحة يعدّ فيها الحاجّ فرداً وجماعةً إعداداً تربوياً صالحاً، ففيها يتجذّر إيمانه ويترسّخ يقينه أكثر فأكثر، وتزداد نفسه سموّاً وارتقاءً وتحليقاً في عالم المُثُل والقيم والمبادئ.

إنّ الحاجّ في هذا الموسم المبارك يتحلّى بأخلاق جميلة وصفات حميدة، فتراه وقد عوّد نفسه على الصبر وتحمّل المشاقّ والأتعاب، وعلى الإنفاق والبذل

(١) سورة البقرة: ٢٠٣.

والعطاء، واتّصف بالشهامة والتواصل والتواضع...

وكلّ هذا نجده في كلام أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

يقول الإمام علي عليه السلام: «وجعله (حجّ بيته الحرام) سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزّته».

ومن كلام للإمام الرضا عليه السلام: «مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس [الأنفس] عن اللّذات شاخصاً في الحرّ والبرد ثابتاً على ذلك أبداً مع الخضوع والاستكانة والتذلّل».

فقد ألغى الحجّ كلّ ما يؤدّي إلى الفوارق بينهم، فظهروا بلباس بسيط واحد، يشير أن لا فرق لأحدهم على الآخر، مظهر هذا اللباس واحد غير متميِّز لا بشكله ولا بلونه، فهو شكل واحد ولون واحد يرتديه العالم والجاهل، الرئيس والمرؤوس، الأبيض والأسود، الوجيه ومَنْ هو أدنى وجاهةً منه، الغنيّ ومن هو أقلّ غناءً منه.. فتراهم مجرّدين عن كلّ ميزة وآصرة إلّا ميزة الإسلام وآصرته وصبغته، فقد ألغى الإسلام أيّ سمة لقريش التي تضمّ ثلاث وعشرين قبيلة، فكانوا لا يقفون في عرفات حيث يقف الحجاج الآخرون ولا يفيضون من حيث يفيضون، فأمرهم جميعاً بـ﴿**ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس...**﴾[1] فلا ميزة لأحد على آخر ولا لطائفة على أُخرى.. الكلّ متساوون حيث لا تفاضل بينهم إلّا بالتقوىٰ، فيحسّون بوحدتهم، ويستشعرون أصلهم أنّهم لآدم وآدم من تراب، فهم أهل أصل واحد، ودين واحد، وبلد واحد، لا حدود ولا فواصل تشتتهم وتفرّقهم، صحيح أنّهم لا تجمعهم لغة واحدة، فهم أهل لغاتٍ مختلفة، بل هم أهل تقاليد وعادات ومستويات مختلفة، وهذا أمرٌ لا ينكره أحد، إلّا أنّهم أهل عقيدة واحدة، وكفى بها جامعاً لهم مانعاً للتباعد والاختلاف وما يترتّب عليه من جدلٍ

(١) سورة البقرة: ١٩٩.

ونفرةٍ ونزاع بل وقتال..

لهذا تراهم لبّوا نداء العقيدة هذه واستجابوا لـ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١].

جاءوا إلى هذه البقاع وقد قطعوا آلاف الأميال جوّاً وبرّاً وبحراً، كم هو عظيم أثر العقيدة على النفوس! وليس هناك أقوى منها تأثيراً على القلوب وصياغةً للأرواح!

وعندئذٍ يلتفت كلّ واحد وكلّ جماعة منهم إلى أنّهم بتلبيتهم هذه اخوة يدفعهم أذان واحد وعقيدة واحدة، وأنّ الذي باعد بينهم هو الحدود التي رسمتها الأنانيات والأطماع.

يقول سيّد قطب: والحجّ مؤتمر جامع للمسلمين كافّة، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُم الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا..﴾[٢]..

يجدون محورهم الذي يشدّهم جميعاً؛ هذه القبلة التي يتوجّهون إليها جميعاً ويلتفّون عليها جميعاً، ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلّها فوارق الأجناس والألوان والأوطان.. ويجدون قوّتهم التي قد ينسونها حيناً، قوّة التجمّع والتوحّد والترابط الذي يضمّ الملايين، الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدّد.. راية العقيدة والتوحيد[٣].

فالحجّ إذن تربية صالحة للجسم والروح، ودورة إيمانية وأخلاقية لسلوك الإنسان المسلم، تتهذّب فيها أخلاقه، ويسمو فيها سلوكه، ويتعوّد الأُلفة مع الآخرين وإن اختلفوا عنه، فتنمو في نفسه الروح الاجتماعية والتفاعل بشكل رائع

(١) سورة الحجّ: ٢٧.

(٢) سورة الحجّ: ٧٨.

(٣) في ظلال القرآن لسيّد قطب ٤: ٢٤١٩ ـ ٢٤٢٠.

وبأرقى درجاته وأجلى مراتبه.

ثانياً: الحجّ فريضة تتضمّن مناسك عبادية تـؤدّى هـنا وهـناك في أوقـات مخصوصة وأماكن معيّنة وبقاع محدودة، يترتّب عليها أجر عظيم وثواب جزيل قد تكفّل الله بهما وبالمغفرة والرضوان، فعن ابن حزم قال:

قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ما يصنع الله بالحاج؟

قال: مغفور والله لهم لا أستثني فيه.

وعن الصادق عليه السلام في سؤال موسى عليه السلام جبرئيل عليه السلام: ما لمن حجّ البـيت بـنيّةٍ صادقة ونفقة طيّبة؟

قال: فرجع إلى الله عزّوجلّ، فأوحى إليه قل له: أجعله في الرفيق الأعلى مع النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للحاجّ والمعتمر إحدى ثلاث خصال؛ إمّا أن يُقال له: قد غفر لك ما مضى، وإمّا أن يُقال له: قد غفر لك مـا مـضى فـاستأنف العمل، وإمّا أن يقال له: قد حفظت في أهلك وولدك وهي أخسّهنّ.

وفي رواية أُخرى: مَن حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أُمّه.

ثالثاً: التعارف: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[1]

وعلى مستوى الوضع العام، يلتقون في مؤتمر كبير يضمّهم جميعاً يـتعارفون فيه، فـ(الحجّ عرفة) يتذاكرون فيه شؤونهم ومشاكلهم وما ينتظرون من حلول لها وإجابات عمّـا يطرحونه من تساؤلات، وعمّـا يصبون إليه من أهدافهم وآمالهم وطموحاتهم، يتدارسون كلّ ما يخصّ عقيدتهم الإسلامية التي كان وما يزال الحجّ

(١) سورة الحجرات: ١٣.

علماً لها كما يقول الإمام علي عليه السلام «وجعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً» ويتعرّفون على دوره العظيم وقدرته على الدفاع عنهم، يتبادلون تجاربهم ويستفيدون من خبراتهم، ويستنيرون بآرائهم وأفكارهم، ويتشاورون فيما بينهم، ويطّلعون على أخبارهم ومعلوماتهم ومشاكلهم وكلّ ما يحدث في بلدانهم، وحتّى على العادات المختلفة لشعوبهم وآثارها، فلكلّ شعب عاداته وقصصه وآثاره... وبذلك تسقط أغلبية أوكل الحواجز سواء أكانت مادية أو نفسية، التي هي نتيجة للفواصل القوميّة والعرقية بين بني البشر، يجمعهم صعيد الإيمان الواسع بعيداً عن الدوائر الضيقة المنطوية علىٰ نفسها... فهو مؤتمر وعي حيث تتمّ فيه توعية المسلمين على أهداف دينهم ومبادئه، وفي الوقت نفسه يتمّ فضح مخطّطات الأعداء وردّ شبهاتهم.

يقول سيِّد قطب: «وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب»[1].

فيعود الحاج وهو يحمل ثقافة أُخرى، ومعلومات قد لا يستطيع أن يجدها مدوّنةً في كتاب أو مطروحةً في محفل من المحافل التي تعوّد على ارتيادها، بل ولم يسمع بها أو يعثر عليها، يجدها في هذا المؤتمر العظيم الذي يزيده ثروة علمية وثقافية، بل وخبرة مضافة تسعفه في حياته وتفتح له آفاقاً أُخرى غير ما اعتاده من الآفاق.

هذا إضافةً إلى أنّه سيعيش الهمّ الإسلامي الكبير بأن يفكِّر خارج دائرته الشخصية والعائلية أو الاجتماعية الضيّقة، فيصوّب ناظريه إلى حيث إخوانه الذين يبعدون عنه آلاف الأميال، يهمّ بهمّهم ويهمّون به، يرصد أخبارهم ويرصدون أخباره... لعلّه كان يسمع أنّ هناك مسلمين في غابات أفريقيا وفي مجاهيلها، وفي

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٤٢٠.

آسيا وأوربا والأمريكيتين... فإذا به يتعرّف عليهم وعلى ثقافاتهم وعاداتهم، فيأتي يتحدّث بها بين أهله وعشيرته وإخوانه... فينمو الترابط والتواصل بين الجميع ويترسّخ الحبّ وتنمو العلاقات، وتُستشعر المسؤولية بشؤون الأُمّة الإسلامية مهما ترامت أطرافها، وتشحذ الهمم للإصلاح والبناء والتغيير والتطوّر، فينبري من له القدرة والكفاءة لتأسيس المشاريع هنا وهناك وإنشاء المؤسسات والمراكز بمستوياتها الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وتبدأ الاستعانة بالخبرات، فتصبح الأُمّة وكأنّها جسد واحد وكيان واحد وروح واحدة.

فالتعارف إذن من المنافع التي تتوفّر على الجانبين المعنوي والمادي وتتكامل عندها المنفعتان بشكل جليّ وواضح.

فهذه الثمار والمعطيات أو التي أسماها القرآن المنافع، معنوية أيضاً يمكن أن يجنيها الفرد في الدار الدُّنيا استقامة على الصراط ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[1] إيمان أكثر صدقاً وخُلق عال وعلم غزير ومعرفة وثقافة واسعة، يتبعه أجر في الآخرة ويرافقه عفو ومغفرة.

المنافع المادّية:

فإضافةً إلى كون الحجّ فريضة عبادية يجني الحاجّ من أدائها تلك المنافع المعنوية.. في الدنيا والآخرة تربية صالحة وإيمان واعٍ وغفران للذنوب... وأجر عظيم وثواب جزيل.. تتداخل جميعها في أكثر من مفصل وموقع مع المنافع المادية، لتكتمل دائرتها التي تلبي تلك الأبعاد والحاجات المتعدّدة للنفس البشرية؛ لهذا فإنّ الفصل بين المنافع المعنويّة والماديّة قد لا يكون أمراً ميسوراً.

فهو مناسبة كبيرة وفرصة عظيمة تتضح فيها ثمار يستطيع الحاج بإخلاصه وصدقه اقتطافها، على مستوى الفرد باعتباره نواة المجتمع الكبير، وعلى مستوى

(١) سورة الشورى: ١٥.

المجتمع باعتباره الإطار العام الذي يتواجد فيه الأفراد ويتألّف منهم، ويقوى بتلاحمهم وتقدّمهم واتّحادهم ويضعف بضعفهم وتخلّفهم وتفرّقهم.

فهناك منافع تعمّ الجميع، أفراداً ومجتمعات، وتتوزّع على نواحٍ متعدّدة في حياتنا فمنها منافع اقتصادية وأُخرى اجتماعية وثالثة سياسية.. تساهم جميعها في بناء الجماعة المسلمة وبالتالي المجتمع الإسلامي الكبير، وتزيد في تطويره ومعرفته وعلمه ووعيه، وفي توجيهه الوجهة الحسنة، فيما تساهم أنشطة هذه المنافع في حلّ مشاكل أجيالنا المعاصرة والتعاون وفي تثبيت مواقعها وتنشيط مسيرتها نحو التطوّر والتكامل.

وتستفيد هذه الأجيال من منافع الحجّ بحسب تنوّع قدراتها وتطوّر إمكانياتها، وبحسب ظروفها وأزمنتها ومستوياتها، فلا تتوقّف هذه المنافع عند جيل معيّن وقدرات محدودة، ثمّ تنتهي بنهاية ذلك الجيل، وتتوقّف وتنضب، بل هي تتجدّد على مرّ الأزمان.

يقول السيّد الإمام الخميني قدس سره: «الحجّ كالقرآن مائدة ينتفع منها الجميع» جميع الأجيال وفي جميع الأحوال.

فما شهده مجتمع إبراهيم الخليل عليه السلام من منافع مادّية غير تلك التي شهدها جيل رسول الله صلى الله عليه وآله وغير التي نشهدها نحن في عصرنا الحاضر. فهي في تطوّر مستمرّ وتوالد متواصل، وعطاء وافر يتجدّد بألوان متنوّعة وأشكال متعدّدة.

ومنافع الحجّ كثيرة وهي كما ذكرنا متداخلة، وقد ذكرنا أشياء منها، ونكتفي هنا ـ وباختصار ـ بذكر محور مهمّ من محاورها، وهو يشكّل أهمّ محور في حياتنا لدوره الخطير ولما يتركه من آثار على مجمل أوضاعنا المعنوية والمادية.

المنافع الاقتصادية

أمّا على المستوى الاقتصادي فالحجّ يعدّ تجمّعاً بشريّاً يتّصف بالقوة والضخامة والكثافة والثراء، يستقطب الحشود الكبيرة من المسلمين من شتّى

البقاع والأمصار، فيولّد حركة هائلة يترتّب عليها وضع اقتصادي وتجاري ومالي ضخم، فالسفر والنقل وحمل البضائع والاستهلاك، وتبادل العملات وشراء الهدايا والأضاحي، وما يحتاجه الحجّ ويستلزمه من مال يدفع ورسوم تؤخذ ومواد تصرف وبضائع تستهلك وأماكن تستأجر وسياحة وتجارة... كلّ هذه الحركات والأنشطة الاقتصادية والمالية والتجارية والسياحيّة... يشهدها مجتمع الحجّ وموسمه، فتدرّ على الجميع خيراً عميماً وربحاً وفيراً شريطة أن يحسن التصرّف، بعيداً عن التبعيّة والإسراف والتبذير والتقتير وما إلىٰ ذلك.

صحيح أنّ الذي نلاحظه في مواسم الحجّ هو أنّ المستفيد من الوضع الاقتصادي والتجاري هو الآخر البعيد عن الإسلام بل المتحرّك ضدّه والمتآمر عليه، إلّا أنّ هذا يحدث لسوء تصرّفاتنا وعدم وعينا بخطورة السوق التي استولى عليها الآخرون؛ لتأخّرنا وتقدّمهم، وتكاسلنا ونشاطهم، ولعدم شعورنا بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا دولاً ومجتمعات وأفراداً، فراح الآخر يملأ أسواقنا بما يعود عليه من نفع كبير، ورحنا نتسابق لشراء ما يقدِّمه لنا دون الاهتمام بإنتاجنا وبتطويره، ولأنّنا مبهورون به وببضاعته وإن ضعفت واشمئزازنا من صناعاتنا وإن قويت.. هذه الروح التي تمكّن أعداؤنا من زرعها في نفوسنا، روح التخاذل والضعة والصغار، والشعور بالضعف والهوان، نزعت الثقة منّا وبالتالي فقدنا كلّ شيء، فصار عطاء هذا الموسم يصبّ في جيوب أعدائنا بأضعاف ما نحصل عليه.

وليس هذا عيباً في الآية الكريمة أو نقصاً فيها، لا أبداً، بل هي دعت الناس المؤمنين بأداء هذه الفريضة للاستفادة من منافع الحجّ ولم تدعو أعداءها وأعداءهم والمتربّصين بهم، بل نحن الذين دعوناهم وفتحنا لهم أسواق هذه المواسم، لقد كانت الدعوة خاصّة بمن يؤدّي المناسك ويؤمن بها ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ...﴾ وبالتالي فهم الذين ينبغي بل يجب أن يقتطفوا ثمار هذه المواسم وخيراتها لا غيرهم.

وها هو الإمام الخميني رضوان الله تعالىٰ عليه وقد تنبّه إلى ذلك الأمر الخطير فراح يطلق تحذيراته المتكرّرة حيث يقول:

«إنّ أسواق البلدان الإسلامية أصبحت مركز تنافس بضائع الغرب والشرق، حيث تتّجه إليها سيول البضائع الأمريكية والأوربية واليابانية، الكمالية منها واللعب والاستهلاكيات.

ومع الأسف الشديد فإنّ مكّة المعظّمة وجدّة والمشاهد المشرّفة في الحجاز... حيث مركز الوحي ومهبط جبريل وملائكة الله، ومحلّ تحطيم الأصنام والبراءة منها، أصبحت مملوءة ببضائع الأجانب، وغدت سوقاً رائجاً لأعداء الإسلام وأعداء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله»[1]..

وقد عدّ الإمام عرض هذه البضائع مخالفةً صريحة لمقاصد الحجّ ولأهدافه ومنافعه.. وليس هذا فقط بل إنّ شراءها يعدّ هو الآخر دعماً لأعداء الله ورسوله فيقول:

«... فإنّ عرضها مخالف للأهداف الإسلامية بل مخالف للإسلام تماماً، وشراءها دعم لأعداء الإسلام وترويج للباطل، فيجب الاجتناب عنها»[2].

وختاماً، فإنّ منافع هكذا بيت مبارك يحجّ إليه منذ نداء نبيّ الله إبراهيم عليه السلام وإلىٰ يومنا هذا، لا تقف عند حدٍّ، وهي التي تجدّد بتجدّد الأزمان وتطوّر أجيالها وعلومها ومعارفها ووسائلها وأدواتها التقنية... وتنبثق من كلّ منسك من مناسكها، ويلمسها كلّ من وفّقه الله تعالىٰ لأداء هذه الفريضة بقلب طاهر ونيّة خالصة، وهو الذي يستفيد منها ويتحسّسها ويستشعرها أكثر من الآخر الذي لا همّ له إلّا إسقاط واجب تعلّق بذمّته.

---

(١) من خطاب الإمام في ٢٨ ذي القعدة / ١٤٠٥هـ.

(٢) المصدر نفسه.